وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴿٣٢﴾

خطاب من الله جلَّ ثناؤه للنبي محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلّم) يأمره فيه أن يمثّل حال المؤمنين والكافرين بحال رجلين، ومن يُنعم النظر في هذا المثل يجده يُشبه في مضمونه قصَّة أصحاب الكهف من جهة، وحال المؤمنين والمشركين من قريش من جهة أخرى، أراد الله عزَّ وجلَّ أن يجعل من هذه القصص مواعظ للناس من المؤمنين والمشركين في زمن البعثة النبوية وفي كلِّ زمان ومكان. وفي هذه القصة توضيح لما جاء في قوله تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾**.

وللأمثال في كلام العرب مكانة كبيرة لما لها من تأثير في نفوس السامعين وقلوبهم، فالمثل: ((قولٌ بليغٌ مقتضبٌ يُضرب في حوادثَ مشابهة لحادثة وقعت في زمانٍ ومكانٍ معينين))[١]. أو هو((صورٌ حيّة ماثلة لمشهدٍ واقعي أو متخيّل مرسومة بكلماتٍ معبرة موجزة، يؤتى بها غالباً لتقريب ما يُضرب له من طريق الاستعارة، أو الكناية، أو التشبيه))[٢]. وفيما يأتي بيان لقصة هذين الرجلين.

هذا المثل ضُرِبَ في رجلين كان أحدهما مؤمناً بالله تعالى زاهداً في الدنيا، والآخر محبّاً للدنيا فأعطاه الله ما يريد من مالٍ وزينةٍ، وجعل له جنتين في كلٍّ منهما ما لذَّ وطاب؛ ليبتليه أيشكر أم يكفر؟ ولما حان قطافهما جاءه صاحبه المؤمن – بعدما أعياه الفقر وألجأته الفاقة – طالباً منه العون على ما هو فيه.

واختلف المفسرون في الرجلين فبعضهم ذهب إلى أنّهما أخوان. قال القرطبيّ: المعنيُّ بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود بن عبد

---

١ حمزة بن الحسن الأصفهانيّ حياته وآثاره، عايد جدّوع حنون، (رسالة ماجستير)، جمهورية العراق، جامعة القادسية، كلية التربية، قسم اللغة العربية (١٤٢١هـ– ٢٠٠١م):٥٤.

٢ الصورة الفنية في المثل القرآني، محمّد حسين عليّ الصغير، دار الرشيد، بغداد (١٩٨٠م):٦٠.

الأشد بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل كان زوجَ أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلَّم)[1]. وقيل: ((كانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات:٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها. فاشترى الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم إنَّ أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنَّة بألف، فتصدّق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني أشتري منك داراً في الجنَّة بألف فتصدّق به. ثم تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إنِّي جعلت ألفاً صداقاً للحور. ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم إنِّي اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدّق به ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به في حشمه، فتعرّض له، فطرده ووبخه على التصدّق بماله))[2]. هذا حالهما في الدنيا، أمّا حالهما في الآخرة فقد ذكره الله عزَّ وجلَّ في سورة الصافات، إذ قال: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾ [سورة الصافات:٥٠-٥٢]. ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ويرى ابن عاشور أنَّهما كانتا بالطائف فإن فيه جنات أهل مكة[3]. ونقل القرطبيّ عن ابن عطيَّة أنّه ذكر قصة لهذين الرجلين غير ما مرَّ ذكره[4]، ونقل ابن عاشور عن ابن عطية أنَّه قال: إنَّها صورة متخيلة[5]، وكثرت في قصة هذين الرجلين الآراء وتنوعت؛ ولذا يبدو أنَّنا لا نستطيع الوقوف عند رأي صائب مع هذا التنوع والكثرة، وسبب هذا التنوع يعود إلى واحد من سببين: إما آراء شخصية (رجماً

---

١ يُنظر: الجامع لأحكام القرآن:١٣/ ٢٦٩؛ والتحرير والتنوير:٣١٦/١٥.

٢ الكشّاف:٥٨٥/٣؛ ويُنظر: مفاتيح الغيب:١٢٥/٢١؛ والجامع لأحكام القرآن:١٣/ ٢٦٩.

٣ يُنظر: التحرير والتنوير: ٣١٦/١٥.

٤ يُنظر: الجامع لأحكام القرآن١٣/ ٢٧٢.

٥ يُنظر: التحرير والتنوير: ٣١٦/١٥.

بالغيب)، أو نُقلت من الإسرائيليات؛ وكلا السببين لا يمكن الاطمئنان إليه والاستناد عليه. ولذا أعتقد أنَّ النبيّ محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلّم) لم يُفصح عن هذه القصة؛ لأنّه لم يُسأل عنها، أو أفصح عنها لكن لم يصلنا قوله. وأعتقد علينا ترك آراء المفسرين المختلفة في اسم هذين الرجلين وتعيينهما، وأهي قصة حقيقية أم متخيلة؟ ونَصُبَّ جُلَّ اهتمامنا على الغاية من ضرب المثل بهذين الرجلين، فهو يمثل صورة تعكس واقعاً من حياة البشر وعلاقتهم مع الدنيا ومدى تعلقهم بها. وأرى أنَّ ما قاله محمد متولي الشعراوي فيها هو الأصوب، وعلينا التمسك به، فقد قال: ((ولقد رُيت قصص كثيرة عن شخصية هذين الرجلين، من هما؟ ولكننا لن نوردها ههنا؛ لأنَّ هذا ليس الهدف من القصة، وإنَّما الهدف من القصة هو العبرة، وما يريدنا الحقّ جلّ جلاله أن نفهمه، هو أن هذا حدث يحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهو ليس مقصوراً على أشخاص معينة، أو أماكن معينة، أو أزمان بعينها، ولو عرَّفنا الله تبارك وتعالى أبطال القصة وزمانها ومكانها، لقلنا أنَّها حادث خاص له زمانه وله أبطاله، ولكنَّه سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أنَّها قصّة متكررة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ)) [1].

وقدّم عزَّ وجلَّ الجار والمجرور ﴿**لهم**﴾ على المفعول به ﴿**مثلاً**﴾ للتخصيص أي لهم خاصّة؛ لإلقاء الحجّة عليهم، والضمير ﴿**هم**﴾ يعود على المشركين. و﴿**رجلين**﴾ بدل من ﴿**مثلاً**﴾. ﴿**جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ**﴾ لفظة ﴿**جَعَلْنَا**﴾ تُنبئ بأنَّ الجنتين من نعم الله على ذلك الرجل الجاحد، فهو الذي خلقهما. وسُمّيت الجنَّة جنةً؛ ((لاستتار ما يستتر فيها بظلِّ الأشجار، وأصل الكلمة من الستر والتغطية)) [2]. ﴿**وحففناهما بنخل**﴾ أي أحطناهما من جوانبهما بنخلٍ. والحفاف الجانب، وجمعه أحفة؛ ويقال: حفَّ القوم بفلان يحفونه حفّاً، أي طافوا به [3]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ**

---

١ سورة الكهف، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الشعراوي الإسلامية، ٦ شارع الصحافة، القاهرة:٣٢.

٢ مفاتيح الغيب:٢١/ ١٢٥.

٣ يُنظر: المصدر نفسه:٢١/ ١٢٥.

رَبِّهِمْ﴾ [سورة الزمر:٧٥]. ﴿**وجعلنا بينهما زرعاً**﴾ ((جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنَّها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن، والترتيب الأنيق))[1]، ولا يُستبعد أن يكون الزرع فاصلاً بين الجنتين.

والذي يبدو من الأوزان الصرفية للألفاظ: (أعناب، نخل، زرع) أنَّه تعالى أراد أن يصف الجنتين بالصغر، فأعناب جاءت على بناء (أَفْعَال)، وهو جمع قلة لـ(عِنَب)، مع أنّ (عِنَب) هي الأكثر في الانسجام الصوتي مع ﴿**نخل**﴾ و ﴿**زَرْع**﴾ ، وقال تعالى: ﴿**نَخْل**﴾ على بناء (فَعْل)، ولم يقل: (نخيل) على بناء (فَعِيْل)، مع أن (نخيل) أكثر مبالغة من ﴿**نَخْل**﴾، وقال عزَّ من قائل: ﴿**زَرْع**﴾ على بناء (فَعْل)، ولم يقل: (زُرُوْع) على بناء (فُعُوْل)؛ مع أنّ (زروع) أكثر مبالغة من ﴿**زَرْع**﴾. وفضلاً عن ذلك فإنَّ حرف الجرّ (من) في ﴿**مِنْ أَعْنَابٍ**﴾ يدلُّ على التبعيض، والتبعيض يدلُّ على القلّة.

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً﴿٣٣﴾

﴿**كلتا الجنتين**﴾ أي كلُّ واحدة من الجنتين. واختلف المفسرون والنحويون في لفظتي (كلتا، وكلا)، أهما مفرد أم مثنى؟

البصريون يذهبون إلى أنّهما مفردان في اللفظ مثنان في المعنى، والتاء فيهما بدل من (واو) فاصلة كلوى عند سيبويه، و(الألف) للتأنيث، وخالفهم في ذلك الجرميّ (ت٢٥٥هـ)، فهو يرى أنَّ التاء زائدة، و(الألف) منقلبة عن أصلها، ووزنها (فَعِيْل)[2]، وقال الفراء: (((كلتا) ثنتان لا يُفرد واحدتهما، وأصله كلّ كما تقول للثلاثة: كلّ: فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع لا أن يفرد للواحدة شيء فجاز توحيده على مذهب كلّ. وتأنيثه جائز للتأنيث الذي ظهر في (كلتا). وكذلك فافعل بكلتا، وكلا، وكلّ إذا أُضيفت إلى

١ الكشّاف:٣/٥٨٥.

٢ يُنظر: روح المعاني:١٥/٢٧٤.

معرفة، وجاء الفعل بعدهن، فاجمع ووحِّد))[1]. والبغداديون يذهبون إلى أنَّهما مثنى لفظاً ومعنى[2]؛ ويبدو أنّهم يذهبون إلى ذلك بعلّة أنّ (كلا، وكلتا) في توكيد الاثنين نظير (كلّ) في المجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا وليهما اسم ظاهر كان في الرفع، والنصب، والجرّ على حال واحدة، تقول: رأيت كلا الرجلين، وجاءني كلا الرجلين، ومررت بكلا الرجلين؛ أمّا إذا اتَّصلا بمضمر قلبت (الألف) فيهما ياءً في موضع الجر، والنصب، فتقول: رأيت كليهما، ومررت بكليهما، كما تقول: عليهما.

والصواب ما ذهب إليه البصريون، بدلالة إفراد الخبر بقوله ﴿**آتت**﴾ إذ لو كان مثنى لقال تعالى: (آتتا). ﴿**أُكُلها**﴾ الأُكل – بضم الهمزة – ثمر النخل والشجر خاصّة، وكلُّ ما يُؤكل فهو أَكل – بالفتح –. ﴿**ولم تظلم منه شيئاً**﴾ لم تنقص منه شيئاً؛ لأنَّ الظلم يكون بانتزاع ما عند المظلوم[3]. أي لم تنقص كلُّ جنَّة من الجنتين من أُكُلها. ﴿**وفجّرنا**﴾ ((الفجرُ: شقُّ الشيء شقّاً واسعاً، كفجر الإنسان السَّكْرَ، يُقال: فَجَرْتُهُ فانفَجَرَ، وفَجَّرْتُهُ فتَفَجَّرَ))[4]. وقال تعالى: ﴿**فجّرنا**﴾ بالتشديد لنهرٍ واحد؛ للدلالة على أنّ النهر ممتد فكان التفجير فيه كلّه على امتداده. ﴿**خلالهما نهراً**﴾ أي: شققنا وأجرينا في وسطهما نهراً، والمراد من ذلك إنّ البارئ عزَّ وجلَّ أراد أن يُعْلِمَنا أنَّ شرابهما كان من ماء نهر، وماء النهر من أغزر الشرب.

ويعلل الشعراوي هذا الوصف الإلهي قائلاً: ((هنا يلفتنا الحقّ سبحانه وتعالى إلى أنَّ الجنتين أعطتا صاحبهما بالأسباب؛ فلأنَّه زرع، وحرث، وسقى، واعتنى أعطته الرزق الوفير، فكأنّ الأرض لم تظلمه، أخذ بالأسباب فأعطته الأسباب...، لكننا لا ننتبه إلى أنَّ الأسباب تُخفي وراءها إرادة المسبب...؛ لنعرف أنَّ الأسباب لا تعطي بذاتها، ولكن وراءها

---

١ معاني القرآن، الفرّاء: ١٤٢/٢.

٢ يُنظر: روح المعاني:٢٧٤/١٥.

٣ يُنظر: مجاز القرآن:٤٠١/١؛ وجامع البيان عن تأويل آي القرآن:١٥/ ٢٥٨؛ والكشّاف:٥٨٥/٣.

٤ المفردات في غريب القرآن: مادة (فجر) ٣٧٣.

دائماً إرادة المسبب. ولكن لماذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى ذلك؟ حتى لا نعبد الأسباب، ونترك خالق الأسباب، وحتى لا تغرنا الدُّنيا، فنعتقد أنَّنا نستطيع أن نفعل بذاتنا، [من] دون الاستعانة بالمسبب)) ﴿١﴾.

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴿٣٤﴾

﴿**وكان له ثَمَر**﴾ قدّم تعالى الجار والمجرور ﴿**له**﴾ على ﴿**ثَمَر**﴾ للدلالة على التخصيص، أي الثَّمر كان للكافر الجاحد المتكبر خاصّة، قال الجوهري: ((الثَّمَرَةُ: واحدة الثَّمَر والثَّمَرَات، وجمع الثَّمَر ثِمَارٌ، مثل جَبَل وجِبَال. وقال الفراء: وجمع الثِّمَارِ ثُمُرٌ؛ مثل كِتَاب وكُتُب، وجمع الثُّمُر أَثْمَار؛ مثل أَعْنَاق وعُنُق. والثَّمَر أيضاً المال المُثَمَّر، ويُخفف ويُثقَّل))﴿٢﴾، وعلى هذا الأساس فسَّر الرازيّ ﴿**ثَمَر**﴾ بهذه الآية بـ ((أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثر))﴿٣﴾. والنحّاس لم يقتنع بقراءة هذه الآية – وإن وردت بالمصحف– ويرى أنَّ الصواب أن تُقرأ (وكان له ثُمُر) – بضم الثاء والميم–، واحتجّ لرأيه بما يأتي:

أ– قال مجاهد: كلُّ ما كان في القرآن من ثُمُرٍ فهو المالُ، وما كان من ثَمَر فهو الثِّمار.

ب– وقال أبو عمران الجونيّ: الثُّمُر: أنواع المال، والثَّمَرُ: الثَّمرات.

جـ – وقال أبو يزيد المدني: الثُّمُرُ: الأصلُ، والثَّمَرُ: الثَّمرةُ. وفسَّر النحاس لفظة الأصل: بالشجر، وما أشبهها. وخلص من هذه الأقوال إلى أنَّ معناها واحد، وهو الثُّمُرَ: المال. أمّا قراءته بالضم فحجّته فيها أنَّها قراءة الأعمش، وقال: حدثني أبان بن تغلب عن الأعمش أنَّ الحجَّاج قال: لو سمعتُ أحداً يقول: (وكان له ثُمُر) لقطعتُ لسانه، فقلت للأعمش: أتأخذ بذلك؟ قال: لا، ولا نعمة عين﴿٤﴾. وقال الشيخ محمَّد علي الصابونيّ– محقق كتاب

---

١ سورة الكهف:٣٣.

٢ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة (١٩٩٠م): مادة (ثمر)٦٠٥/٢؛ ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن:٢٧٥/١٣.

٣ مفاتيح الغيب:٢١/ ١٢٦.

٤ يُنظر: معاني القرآن الكريم، النحّاس:٢٣٩/٤–٢٤٠.

(معاني القرآن) للنحاس: ((ولا عبرة بقول الحجّاج، فإنَّه معروف في اللغة؛ ولهذا ردَّه الأعمش))[1].

أعتقد أنَّ السبب الذي دفع الحجَّاج لأن يقول: (وكان له ثُمُر) لقطعتُ لسانه؛ لأنّ هذه القراءة جاءت مخالفة لكلام الله عزَّ وجلَّ، وإن كانت موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية، ثم تَزَمُّتُ الأعمش والنحاس ومن وافقهم لا كرامة فيه فهو ليس مخالفاً لكلام الله فحسب، بل مخالفاً لأقوال العلماء أيضاً، كما اتَّضح لنا ذلك في قول الجوهريّ، وتفسير الرازيّ. فضلاً عن مخالفته لسياق الآية، فالآية تتحدّث عن ثَمَر الجنتين، ولا ذكر للمال فيها، فالذي يؤكل الثَّمر – بفتح الثاء–، وليس الثُّمر بالضم.

﴿**فقال لصاحبه**﴾ فقال للرجل المؤمن العارف المتواضع، والمراد بالصاحب المعنى اللغوي فلا ينافي هذا القول إنّهما كانا أخوين. ﴿**وهو يحاوره**﴾ جملة اعتراضية حالية، وضمير ﴿**هو**﴾ عائد على الرجل الجاحد، والمحاورة: ((نوع من الحديث بين شخصين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما [من] دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب))[2]، ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً**﴾ ﴿**أنا**﴾ تدلُّ على تعظيم النفس، وتخصيصها. ﴿**أكثر**﴾ اسم تفضيل، فضّل به نفسه على صاحبه بكثرة المال، ﴿**وَأَعَزُّ**﴾ (الواو) عاطفة، ﴿**أعزُّ**﴾ اسم تفضيل أيضاً معطوف على اسم التفضيل ﴿**أكثر**﴾ فضّل به نفسه على صاحبه بالعزّة. ﴿**نَفَراً**﴾ نُصب على التمييز. والنفر: الرهط وهو ما دون العشرة من الأتباع، والخدم، والولد[3]، وسُمُّوا نفراً؛ لأنّهم ينفرون معه لقضاء حوائجه[4]. وأُرِيد به في هذه الآية الأولاد، يدلُّ على ذلك قوله تعالى – على لسان صاحبه المؤمن–: ﴿**إِنْ تُرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً**﴾ [الكهف:٣٩]، ونسب الرجل الجاحد

---

١ معاني القرآن الكريم، النحّاس: ٢٤٠ هامش (٤).

٢ فنون الحوار والإقناع، محمد راشد ديماس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ –١٩٩٩م):١١.

٣ يُنظر: الجامع لأحكام القرآن:٢٧٦/١٣.

٤ يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن:٦/ ٢٦٢.

الكثرة، والعزة، والنفر إلى نفسه ظنّاً منه أنّه مالكٌ وليس مملوكاً لله تعالى ولم يعلم أنَّ في زينة الجنتين ابتلاءً وامتحاناً له، فنَسِيَ الله العزيز القدير، وتكبَّر وتبطَّر على صاحبه.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴿٣٥﴾

(الوَاو) عاطفة. ﴿**دَخَلَ جَنَّتَهُ**﴾ جملة فعلية من الفعل والفاعل والمفعول به، و﴿**جَنَّة**﴾ مضاف، و(الهاء) مضاف إليه. ﴿**وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**﴾ (الواو) حالية. ﴿**هو**﴾ مبتدأ. ﴿**ظالم**﴾ خبر. ﴿**لنفسه**﴾ جار ومجرور. ومن يتأمّل سياق هذه الجملة يجدها جملة اعتراضية حالية. ((والحال في الأغلب تدلُّ على تغير؛ ولذا جاء اسم الفاعل منوناً أي عامل في كلمة نفس، واسم الفاعل إذا عمل أعطى دلالة الفعل في التغير وعدم الثبات، فيشكل التركيب اللغوي انسجاماً بين اللغة و دقة المعنى))[1]. ﴿**قال**﴾ فعلٌ ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الرجل الجاحد. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**أظنُّ**﴾ فعلٌ مضارع، والفاعل ضمير يعود على الرجل الجاحد. ﴿**أن**﴾ مصدرية. (**تبيدَ**﴾ فعلٌ مضارع منصوب، والمصدر المؤول من ﴿**أن**﴾ والفعل مفعول به للفعل ﴿**ظنَّ**﴾. ﴿**هذه**﴾ فاعل. ﴿**أبداً**﴾ ظرف زمان. وجملة ﴿**ما أظن أن تبيد هذه**﴾ جملة مقول القول في محل نصب مفعول به.

المعنى: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ**﴾ إخبار من الله جلَّ ثناؤه بدخول الكافر إلى جنته، ولم يقل جنتيه؛ إذ ليس من المعقول أن يدخل جنتيه في وقتٍ واحدٍ، والمعنى: ودخل جنته ليُرِيَ صاحبه ما هي عليه من البهجة والنضارة والحسن. ﴿**وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**﴾؛ لأنّه نسب إلى نفسه قدرات الله تعالى متجاهلاً أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي أعطاه هذا الخير. والآية تكشف عن إعجابه بنفسه، وركونه إلى الأسباب الظاهرية، وشركه بالله، ونما عنده هذا الإحساس وتضخم تدريجياً حتى وصل إلى حالٍ بدأ يظنّ فيها أنّ تلك الثروة (المال،

١ دراسة أسلوبية في سورة الكهف: (أطروحة) ٦٠.

والجاه، والنفوذ)، إنّما هي أمور أبديّة؛ ممّا أسخط الله عليه، فحقَّ عليه العقاب[1]؛ بكفره بالبعث، وتكبّره، وتمرده، وتجبره، وشكَّه بقيام الساعة، وتنكره للمعاد. و﴿**أظنُّ**﴾ في الآية بمعنى: أعتقدُ؛ لأنّ ظنَّ من الأضداد. مرّة يأتي بمعنى الشكّ، وأخرى بمعنى الاعتقاد. ويمكن التعرف على معناه بحسب السياق الذي يرد فيه[2]. وكلّ مَن يُدخِل نفسه النار بكفره فهو ظالم لها، أي هو باخس حقها. فلما رأى ذلك الجاحد المتكبّر ما أعجبه في الجنّة توهَّم أنّها ستدوم، وأنّ ما فيها لن يفنى أبداً. فقال: ﴿**مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً**﴾ البيد، والبيدودة: الهلاك، والفناء. وأشار بـ ﴿**هذه**﴾ إلى الجنّة[3]. ﴿**أبداً**﴾ أي إلى ما لا نهاية. والمعنى: إنَّه رأى أنَّ حال تلك الجنّة يُطَمْئِنُ النفسَ، فلم يتردد في التفكر في بقائها فانغرّ بها حتى أعتقد أنّها لن تُفنى، وهذا يدلُّ على أنَّه تناسى الموت وتجاهله، فلما رأى كثرة النخل، والزروع، والثمار، ظنَّ أنَّ جنته لن تفنى؛ لضيق عقله، وقلة فهمه، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وضعف يقينه بالله تبارك وتعالى، وكفره بقيام الساعة. إذ يتجسّد حبّ الأفراد للدنيا بالظنّ التدريجي بخلود ما في أيديهم، فيتناسون الموت، وقيام الساعة.

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴿٣٦﴾

(الواو) حرف عطف .﴿**مَا**﴾ نافية ﴿**أَظُنُّ**﴾ فعل مضارع، والفاعل يعود على المتكلّم. ﴿**السَّاعَةَ**﴾ مفعول به أول ﴿**قَائِمَةً**﴾ مفعول به ثانٍ. ﴿**ولَئِنْ**﴾ (الواو) عاطفة. ﴿**لَئِنْ**﴾ اللام للقسم. ﴿**إن**﴾ شرطية ﴿**رُدِدْتُ**﴾ فعل الشرط مبني لما لم يُسم فاعله. ﴿**إِلَى رَبِّي**﴾ جار ومجرور، ﴿**رَبِّ**﴾مضاف، و(ياء المتكلّم) مضاف إليه. ﴿**لأَجِدَنَّ**﴾ (اللام) للتوكيد، ﴿**أَجِدَ**﴾ جواب الشرط، وهو فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة

---

١ يُنظر: سورة الكهف: ٣٤.

٢ ينظر: فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزيديّ، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى (٢٠٠٥م):١٦٤-١٦٦.

٣ ينظر: الميزان في تفسير القرآن:١٣/ ٣٠٧.

التي أفادت التوكيد أيضاً، والفاعل المتكلم. ﴿خَيْراً﴾ مفعول به أول. ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور.﴿مُنقَلَباً﴾ مفعول به ثانٍ لأجدنَّ.

المعنى: ((انتقل من الإخبار عن اعتقاده دوامَ تلك الجنّة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة))[1] إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ هذه الجملة مبنية على ما مرَّ من الاعتقاد، أي لا أَعتقد أنَّ يومَ القيامة سيأتي، فهو لما عنده من زينة الحياة صار يشكك في يوم البعث، ويرى أنّ قيام الساعة أمرٌ مستبعد؛ لتعلقه بالدنيا، وهذا هو شأن أهل الدنيا ما زالوا على تناقضٍ في الرأي فهم يعملون بما يصدقونه بأهوائهم ويكذبونه بعقولهم، ويطمئنون إلى رأي الهوى فيمنعهم من الالتفات إلى قضاء العقل. ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ ولئن جاء يوم القيامة ورُدِدتُ إلى ربِّي على سبيل الفرض ﴿لأَجِدَنَّ﴾ في الآخرة خيراً من جنّة الدنيا؛ لاعتقاده بأنّ له كرامة على الله سبحانه تعالى ومكانة عنده عزّ وجلّ[2]؛ لأنّه يعتقد أنّ ربّه آتاه الجنتين في الدنيا لاستئهاله وستحقاقه إياهما. قال الرازيّ: ((إنَّه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظنَّ أنّه إنَّما أعطاه ذلك؛ لكونه مستحقاً له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت، فوجب حصول العطاء))[3]، ﴿خيراً﴾ اسم تفضيل حُذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال، وأصله (أخير)[4]، وهو تفضيل على التوهّم، إذ توهم أنَّ ما يمتلكه في الدنيا سيجد خيراً منه في الآخرة، وهكذا خدعته نفسه، وغرَّه إبليس؛ ولهذا أقسم على ما قال. يدلُّ على ذلك (لام) القسم في قوله تعالى – على لسانه –[5]: ﴿لئن رددت﴾، ولام التوكيد، ونون التوكيد الثقيلة في قوله تعالى – على لسانه: ﴿لأجدنَّ﴾، ومعنى ﴿منقلباً﴾ مرجعاً

---

١ التحرير والتنوير: ٣٢١/١٥.

٢ يُنظر: الجامع لأحكام القرآن:٢٧٧/١٣.

٣ مفاتيح الغيب: ١٢٧/٢١.

٤ ينظر: شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يوني، بنغازي، الطبعة الثانية (١٩٩٦م): ٤٤٧/٣؛ والمهذّب في علم التصريف، د. هاشم طه شلاش وآخرون، مطبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد (د.ت): ٢٨٤.

٥ ينظر: الكشّاف:٥٨٦/٣.

وعاقبة[1]. ((وهكذا فإنَّ صاحب الجنتين أخذ نعمة الدَّنيا بغير مفهومها الحقيقي فاعتقد أنَّها ستدوم وتمادى في غيّه، وأنكر البعث والساعة، ثمَّ زاد على ذلك ... بأنَّ الله سيعطيه نعمة أكثر)) [2].

ومن الدلائل على غروره وتكبرّه قوله: ﴿**رددت**﴾ ولم يقل: (ردني ربّي إليه)، وقوله: ﴿**لأجدنَّ**﴾ ولم يقل: (يرزقني الله) أي وإن كان ثمّة بعث – على سبيل الفرض – فكما أعطاني ربّي هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منها في الآخرة؛ لكرامتي عليه، وهو معنى قوله: ﴿**لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً**﴾. وقال ذلك عندما دعاه صاحبُه المؤمن – في المحاورة التي دارت بينهما – إلى الإيمان بالحشر، والنشر، وذكّره بيوم القيامة.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴿٣٧﴾

﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ**﴾ يعني: المؤمن العارف المتواضع، وقدم الجار والمجرور ﴿**له**﴾ على الفاعل ﴿**صاحبه**﴾ للاختصاص، و﴿**صاحب**﴾ مضاف، و(هاء) مضاف إليه. ﴿**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾ جملة اعتراضية حالية ومعناها: ((يراجعه الكلام من حار يحور))[3] أي يراجعه الكلام في إنكاره البعث وإشراكه بالله تعالى.

فبعدما أكمل الرجل الجاحد كلامه، ردَّ عليه المؤمن بكلِّ هدوءٍ وطمأنينة نفس، قائلاً له: ﴿**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾؟! قال الرازيّ في تفسير هذه الآية: ((إنَّه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثاً؛ وإنَّما خلقك للعبودية، وإذا خلقك لهذا المعنى

---

١ ينظر: الكشّاف:٥٨٦/٣؛ ومفاتيح الغيب:١٢٦/٢١.

٢ سورة الكهف: ٣٧.

٣ الكشّاف:٥٨٦/٣.

وجب أن يحصل للمطيع ثواب، وللمذنب عقاب))[1]. أعتقد أنّ في قول الرازيّ هذا نظرة عقائدية ضيقة، منطلقة من مذهبه الأشعري هي إنَّ الله يوجب على نفسه (مجبر). والذي أراه أنَّ في الآية حِجَاجاً؛ لأنَّ الغاية من كلّ استفهام سواء أكان حقيقياً أم غير حقيقي تتمثّل في أن نفرض على المخاطَب إجابة محددة يمليها عليه المقتضى الناشئ عن ذلك الاستفهام، فيتم بذلك توجيه دفة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد[2].

وغالباً ما يعدل المُحَاجِج من الخبر إلى الإنشاء باعتماد أسلوب الاستفهام التقريري ويُسمى استفهاماً غير حقيقي يخرج من دلالته الحقيقية، وهي طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل إلى دلالات أُخر[3]، والمُحَاجِج الفطن ينبغي أن يعرف متى يتكلم، ومتى ينصت، ومتى يجيب، سريع البديهة، مدركاً لأبعاد كلامة، وهو ما نجده عند هذا الرجل المؤمن.

ففي الاستفهام الذي مرَّ ذكره في الآية الكريمة عدل الرجل المؤمن الفقير من الخبر إلى الإنشاء بهذا الأسلوب الحِجَاجِي، لما فيه من حجّة دامغة؛ لأنّه أوقع في النفس، وأدلّ على الإلزام. فمراحل خلق الإنسان من تراب، ثمَّ من نطفة، ثم يصير رجلاً حقائق لا مراء فيها ولا جدال هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الأسلوب يجعل المخاطَب في حالة اضطرار إلى الجواب، فهو يجعل المخاطب يجيب في الاتجاه الذي يرسمه سؤال المحاجِج، فأراد الرجل الفقير من هذا العدول أن ينتزع إقرار صاحبه واعترافه بهذه الحقائق، وهو بذلك حصره بزاوية ضيقة، الأمر الذي جعله يلازم الصمت، وملازمته الصمت علامة على أنّه اعتراف بأنّه كان ظالماً لنفسه وجاحداً لنعم الله عليه، وفضلاً عن ذلك فإنّ في هذا الأسلوب الحِجَاجِي دلالة على التعجب من قول صاحبه وفعله، زيادة

---

١ مفاتيح الغيب: ١٢٧/٢١.

٢ ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية (٢٠٠٧م) :٤٢٧.

٣ يُنظر: الحجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام)، عايد جدّوع حنّون، (أطروحة)، جمهورية العراق، جامعة البصرة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية (١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م):٩٥.

على دلالة التوبيخ، والتحقير، والإنكار. وهكذا حقق الرجل المؤمن بهذا العدول من أسلوب الخبر إلى أسلوب الإنشاء النتيجة المرجوة من الحِجَاج وهي انتزاع اعتراف صاحبه الجاحد بظلمه لنفسه ونكرانه لنعم الله عزّ وجلّ عليه، إذ قال بعدما رأى آيات ربّه: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً**﴾ [سورة الكهف:٤٢]، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل. ولا علاقة للآية بالوجوب على الذات الإلهية المقدسة كما يعتقد الرازيّ.

﴿**بالذي**﴾ اسم موصول أشير به إلى صفة من صفات الله عزَّ وجلَّ. ﴿**من تراب**﴾ ﴿**من**﴾ حرف جر لابتداء الغاية. ﴿**تراب**﴾ فسرها الطبريّ: ((خلق أباك آدم من تراب))[١]، وقال الزمخشريّ: ((خلق أصلك؛ لأنَّ خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له))[٢]، وقال ابن عاشور: ((إشارة إلى الأجزاء التي تتكوّن منها النطفة، وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض))[٣]، والذي يبدو أنّ ما ذهب إليه ابن عاشور أقرب إلى الصواب، فالمراد بالآية الإشارة إلى المادة الأساس التي يُخلق منها الإنسان، فكلّ إنسان يُخلق من هذه المادة الرخيصة، – وذلك عن طريق الغذاء الذي يتغذاه وهو مؤلف من ماءٍ وتراب يغذيان بذرة لتُزهر ثم تُثمر فيأتي الإنسان يتناول ذلك الثمر–، ثم يتحول الغذاء إلى (نطفة) ويُراد بها ماء الرجل الذي يتولد من أغذية راجعة إلى التراب، فنبهه أولاً على ما تولد منه ماء أبيه. و (نطفة) في اللغة تعني: ((القليل من الماء، يُقال: ما في القربة من الماء نطفة، المعنى: ليس فيها قليل ولا كثير، وسمِّيَ المني نطفة؛ لأنَّه يُنطف: أي يقطر قطرة بعد قطرة))[٤].

وذكر هنا التراب فقط من دون أن يذكر الماء؛ ليعطي حجَّة أقوى على أنَّ الأصل الذي يُخلق منه الإنسان شيءٌ لا قيمة له، ولم يذكر مراحل خلقه – كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ**

١ جامع البيان عن تأويل آي القرآن:١٥/ ٢٦٣.

٢ الكشّاف:٣/٥٨٧.

٣ التحرير والتنوير:١٥/٣٢٢.

٤ البحر المحيط:٦/١١٨.

خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١٢-١٦] -؛ لأنَّ المراد من الآية في هذا الموضع ضرب مثل أُريد منه توبيخ كلّ مغرور، ومنهم كبار قريش الذين طلبوا من الرسول محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلَّم) أن يُبعد المؤمنين من المسجد بحجَّة أنّ في جبابهم ريحاً غير طيبة، وموضع التوبيخ يكمن في أصل خلق الإنسان فهو يُخلق من شيءٍ لا قيمة مادية له، ثم يتحوّل إلى نطفة قذرة، ثم ينتقل إلى مرحلة الاستواء. **﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾** نقلك من حالٍ إلى حال حتى صرت إنساناً بالغاً معتدل القامة والخَلْق، صحيح الأعضاء ذكراً. و**﴿رجلاً﴾** مفعولٌ به ثانٍ لـ**﴿ سوى﴾**، و**﴿سوى﴾** في هذه الآية تضمنت معنى (جعل) أي جعلك رجلاً سوياً.

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴿٣٨﴾

﴿لَكِنَّا﴾ الأصل: **﴿**لكنْ+ أنا**﴾** حُذفت الهمزة وأُدغمت النون في النون فصارت **﴿لكنَّا﴾**. و**﴿لكن﴾** مخففة تدلُّ على الاستدراك، و**(لكنْ)** إذا خُفِفَتْ لا تعمل فيما بعدها، و**﴿أنا﴾** ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ أُريد منه الاختصاص بالحديث عن نفسه، **﴿هو﴾** ضمير الشأن، ولفظ الجلالة **﴿اللهُ﴾** خبر للمبتدأ. **﴿ربِّي﴾** بدل من لفظ الجلالة، و(الياء) مضافٌ إليه، ليحقق بهذا التكرار دلالتين: الأولى: إنّه خالقي. والأخرى هو الذي يهتم برعايتي، وفي ذلك ردّ على نكران الرجل للعناية الإلهية. ونلحظ في الآية تكرار لفظ (ربّيّ) مرتين؛ لأنَّ الرجل المؤمن أراد قصر الربوبية لله الواحد القهار على نفسه من دون صاحبه الجاحد.

وللمفسرين في تفسير هذه الآية آراء: (((أحدها) إنّي لا أرى الفقر والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى، وأصبر إذا ابتلى، ولا أتكبَّر عندما يُنعم عليَّ، ولا أرى كثرة المال، والأعوان من نفسي؛ وذلك لأنَّ الكافر لما أعتز بكثرة المال والجاه فكأنَّه قد أثبت لله شريكاً في إعطاء العزِّ والغنى. (وثانيها) لعلَّ ذلك الكافر مع كونه منكراً للبعث كان عابد صنم فبيّن هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشركاء. (وثالثها) أنَّ هذا الكافر لما عجز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساوياً للخلق في هذا العجز، وإذا أثبت المساواة، فقد أثبت الشريك))[١]. ورابعها: ((أنا لا أقول بمقالتك، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية)) [٢].

والذي يبدو أنَّ المعنى: إن افتخرت عليّ بما تملك بدنياك، فأنا افتخر عليك أنِّي موحد الله لا أشرك به أحداً. وفي الآية دلالة على التعريض بصاحبه، والتعريض من الأساليب البلاغية الحِجَاجِية، ويُقصد به إطلاق الكلام ويُشار به إلى معنى آخر يُفهم من السياق وظروف القول، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنّ المعنى فيه يُفهم من عرضه، وعرض كلّ شيءٍ بجانبه، ويُسمّى بالدراسات الحِجَاجِية التداولية بالاستلزام الحواري، وهو من الأفعال الكلامية الإنجازية[٣]، ويستطيع المُحَاجِج بواسطة هذا الفعل الكلامي أن يُنجز ((أفعالاً لغوية غير مباشرة باستعمال أفعال لغوية أخرى؛ لتدلّ على معنى آخر غير الذي وُجِدت له في حقيقتها، فتتوّلد عنها معانٍ أصلية وترد في سياقات تناسب المقام، ويكون ذلك بواسطة ما يسمّى بـ(قرائن الحال) إذ تخترق أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه، ويتوّلد معنى آخر يناسب المقام))[٤]. ويختص بالتركيب، ولا يأتي مفرداً، والمعنى فيه يُلمّح إليه تلميحاً، ولا يتضمن علاقة دلالية لزومية بين معنى اللفظ الظاهر والمعنى الخفي؛ إذ يمكن أن يستعمل الخطاب الواحد في أكثر من سياق، فينتج عنه قصد يختلف باختلاف السياق،

---

١ مفاتيح الغيب:١٢٧/٢١.

٢ تفسير القرآن العظيم:٩/ ١٣٨.

٣ يُنظر: الحجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام): (أطروحة)٦٤-٦٨.

٤ دراسة الأفعال الكلاميّة في القرآن الكريم – مقاربة تداوليّة –، بوقرومة حكيمة، بحث منشور في مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري – تيزي وزو –، الجزائر، دار الأمل، العدد (٣)، لسنة (٢٠٠٨):٢٠.

وتُفهم دلالته من القرينة، والمتلقي لا يُدرك المعنى المراد منه إلا إذا كان ملماً بالسياق الذي يرد فيه، فضلاً عن معرفة ظروف القول، ومناسبته، واستعمال التعريض في الخطاب له وقع بالغ في المتلقي، وأثر حِجَاجِي أبلغ من التصريح[1]، ويمكن توضيح ذلك أكثر استناداً إلى نظرية تولمين[2] الحِجَاجِية التي تتألف من: (المعطى، الضمان، النتيجة المضمرة) [3]:

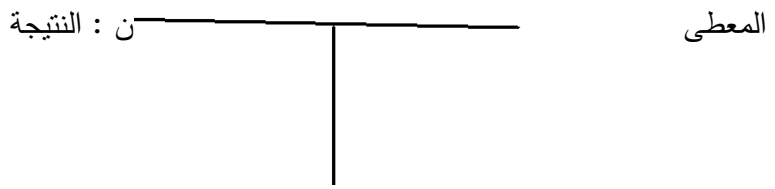

نظراً إلى أنّ : الضمان

- **المعطى:** ويُقصد به القول الذي يذكره المحاجِج، ويتمثل في هذا الحجاج بالآية الكريمة المذكورة آنفاً.
- **الضمان:** القول المضمر المفهوم من سياق القول، والمراد أنا أُأمن بالله عزّ وجلّ وبنعمه عليّ، وأنت جاحد منكر لنعم الله عليك.

---

١ يُنظر: الحجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام): (أطروحة)١١٨-١٢٠.

٢ ستيفن تولمين (Stphen Toulmin) فيلسوف أمريكي من أبرز رواد المدرسة الأمريكية التي اهتمت بالخطابة المعرفية، يرى أنّ الخطابة والحِجَاج لا يمثلان أدوات إقناع المخاطبين واستمالتهم إلى الحقائق والمعارف التي أُنشئت سلفاً فحسب، بل هما أدوات فعّالة لبناء حقائق ومعارف جديدة، من مصنفاته (وجوه استعمال الحِجَاج) طبعه في انكلترا في عام (١٩٥٨م) وتُرجم كتابه إلى الفرنسية في عام (١٩٩٤م). = =يُنظر: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية): هامش ٣٥؛ والحِجَاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنف في الحِجَاج : الخطابة الجديدة) لبيرلمان وتيتيكاه، بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية): ٣٤٨. والحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، د.رشيد الراضي، مجلة عالم الفكر ، العدد (١)، المجلد (٣٤)، لسنة (٢٠٠٥):٢١٢.

٣ يُنظر: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة- دراسة تداولية، ابتسام ابن خراف، (أطروحة دكتوراه)، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج خضر-باتنة-، كلية الآداب = والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها (٢٠١٠م): ١٠٩ ؛ والحجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام): (أطروحة)٢٩.

- **النتيجة المضمرة:** من يشكر نعم الله سوف يؤتيه أجره، ومن يجحد بنعم الله، فسيغضب الله تعالى عليه، ويحل به عقابه. وقد فهم صاحبه مراده، وصرّح به، إذ قال – بعدما رأى خراب جنتيه –: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً**﴾ [سورة الكهف:٤٢].

وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴿٣٩﴾

﴿**لولا**﴾ للتحضيض بمعنى (هلا). ﴿**إِذْ**﴾ ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب، تدلّ على ما مضى من الزمان. ﴿**دَخَلْتَ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**جَنَّتَكَ**﴾ مفعول به، وهو مضاف و(الكاف) مضاف إليه. ﴿**قُلْتَ**﴾ فعل وفاعل. ﴿**مَا**﴾ للمفسرين فيها آراء، منها: قيل إنّها شرطية منصوبة بشاء والجواب محذوف، أي (أي شيءٍ شاء الله كان)، وقيل: موصولة بمعنى الذي مرفوعة على الابتداء، أي (الذي شاء الله كائن)، وقيل: خبر، أي (الأمر ما شاء الله)[١]. وقال الزمخشريّ: ((يجوز أن تكون ﴿**ما**﴾ موصولة مرفوعة المحل على أنَّها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما شاء الله. أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أي شيء شاء الله كان))[٢]، والظاهر من سياق الآية أنّها تدلُّ على التعجب. ﴿**شَاءَ**﴾ فعلٌ ماضٍ. ﴿**اللَّهُ**﴾ فاعل ﴿**لا**﴾ نافية للجنس ﴿**قُوَّةَ**﴾ اسمها. ﴿**إِلاَّ**﴾ أداة حصر ملغاة. ﴿**بِاللَّهِ**﴾ جار ومجرور. ﴿**إِنْ**﴾ شرطية جازمة. ﴿**تُرَنِ**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف الألف لوقوعه بعد أداة الشرط، والأصل (تراني)، حصل تقصير للمصوت الطويل (الألف) إلى مصوت قصير (الفتحة)، وتقصير للمصوت الطويل (ياء المتكلّم) إلى مصوت قصير (الكسرة)، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به أول. ﴿**أنا**﴾ توكيد لياء المتكلم، ﴿**أقلَّ**﴾ مفعول به ثانٍ لـ﴿**ترنِ**﴾ وهي علمية لا بصرية،

١ يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن:٦/ ٢٦٥؛ و البحر المحيط:٦/ ١٢٢.

٢ الكشّاف:٣/٥٨٨.

وجواب الشرط في الآية اللاحقة: ﴿**فعسى ربي**... ﴾. ﴿**مِنْكَ**﴾ جار ومجرور قُدِّم للاختصاص. ﴿**مَالاً**﴾ تمييز. ﴿**وَ**﴾ عاطفة. ﴿**وَلَداً**﴾ اسم معطوف على ﴿**مالاً**﴾.

المعنى: ﴿**وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ المراد من الآية التعريض والتوبيخ أيضاً، إذ قال الرجل الجاحد: ﴿**ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه أبداً**﴾ [الآية: ٣٥]، ويبدو أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿**ما شاء الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ التعجب من قدرة الخالق عزَّ وجلَّ؛ ولذا أعتقد أنَّ ﴿**ما**﴾ للتعجب، وإن خالفت قواعد النحويين ((إقراراً بأنَّ ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنَّما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى))[١]، فلا يقدر أحدٌ من دون قدرة الله وعنايته وتوفيقه عزّ وجلّ أن يفعل شيئاً حسناً لنفسه؛ لأنّ الله تبارك وتعالى هو الذي يمنح الإنسان القدرة على الفعل، ((ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيءٌ من حاله، أو ماله، أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة))[٢].

وأسلوب القصر والحصر بـ(لا..إلا...) يدلُّ على أنّ ما للجاحد من المال والجاه جاء بقدرة الله تبارك وتعالى وقوته، لا بقدرته وقوته هو، ومتى ما شاء الله جلَّ جلاله أنْ ينزِع البركة منه ينزعها. ﴿**إِنْ تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً**﴾ في هذه الآية ردّ المؤمن الفقير على قول صاحبه الجاحد: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾ [الآية:٣٤]. ومن الفوارق ما بين الآيتين:

ذكر أكثر من اسم التفضيل في قول الجاحد (أكثر، وأعزّ) مع تنوّع في التمييز (مالاً، نفراً)، والاقتصار على اسم تفضيل واحد (أقلّ) في قول المؤمن. اتساع دلالة التمييز الثاني (نفراً) في قول الجاحد، واقتصار دلالة التمييز الثاني على الولد فقط، ويرى مروان محمَّد سعيد أنّ الحكمة من تعداد المفضل في قول الجاحد لبيان جانب من نفسيته المتعلقة بمتع

١ الكشّاف:٣/٥٨٨.

٢ تفسير القرآن العظيم:٩/ ١٣٨.

الدنيا، أما جمع الرجل المؤمن المتع باسم تفضيل واحد من دون تكرار؛ لأنّه لا يعد تلك المتع مجالاً للمفاضلة، بل ينفي أن تكون متعاً حقيقية[1].

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴿٤٠﴾

(الفاء) رابطة، ﴿**عَسَى**﴾ فعلٌ ماضٍ جواب الشرط، بمعنى لعلَّ وهي تفيد الترجي للأمر القريب الحصول. أي فلعلّ ربِّي. ﴿**ربِّي**﴾ فاعل وهو مضاف، وياء المتكلم مضافٌ إليه. ﴿**أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ**﴾ ﴿**أنْ**﴾ مصدرية ناصبة. ﴿**يؤتينِ**﴾ ﴿**يؤتيَ**﴾ فعل مضارع منصوب، والفاعل الله عزّ وجلّ، (النون) للوقاية، (الياء) المتكلم المحذوفة مفعول به أول. ﴿**خيراً**﴾ مفعول به ثانٍ. ﴿**من جنتك**﴾ جار ومجرور. ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**﴾ (الواو) عاطفة، ﴿**وَيُرْسِلَ**﴾ فعل مضارع منصوب معطوف على يؤتيَ. ﴿**حُسْبَاناً**﴾ مفعولٌ به. ﴿**مِنْ السَّمَاءِ**﴾ جار ومجرور. ﴿**فَتُصْبِحَ**﴾ (الفاء) سببية ﴿**تصبحَ**﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوب بالفتحة. واختلف النحويون في الناصب، فهي عند البصريين منصوبة بأنْ مضمرة، وعند الكوفيين منصوبة على الصرف، والصرف عند الكوفيين عاملٌ معنوي. ﴿**صَعِيداً**﴾ خبر تصبح منصوب. ﴿**زَلَقاً**﴾ صفة لتصبح.

المعنى: ﴿**فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ**﴾ يرجو الرجل الفقير المؤمن من ربّه أن يجزيه على ما أنفق أجراً في الدنيا والآخرة، وما يُلفت النظر في هذه الآية أنّ الرجل المؤمن استبدل لفظ (الجنتين) بـ﴿**جنتك**﴾؛ للتقليل من شأنها. ومعنى ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**﴾ يُرسل على جنتك في الدنيا. ﴿**حُسْبَانًا مِنْ السَّمَاءِ**﴾ ﴿**حُسْبَاناً**﴾ ((سِهامٌ قصارٌ يُرمى بها في طلقٍ واحد، وكان من رمي الأكاسرة، والمرامي من السماء عذاب))[2]، مفردها

---

١ يُنظر: دراسة أسلوبية في سورة الكهف: (أطروحة) ٦٦.

٢ الجامع لأحكام القرآن:١٣/١٨٣.

حسبانة، والحسبانة الصاعقة، والحُسبان: العذاب، والحساب أيضاً[1]، وقيل: ((مطرٌ عظيمٌ مزعج يقلع زرعها وأشجارها))[2]. ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بمعنى تصير أي تتحوّل من حالٍ إلى حال، ولا يُستبعد أن يكون المراد به وقت الصبح؛ لأنَّ أكثر العقوبات الإلهية تقع بالليل، والإنسان يمارس عمله ابتداءً من الصباح، فما أن يصل إلى جنته يجدها بحالٍ غير ما تركها عليها في المساء. ﴿صَعِيداً﴾ وجه الأرض[3]، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [سورة المائدة:٦]. ﴿زَلَقاً﴾ تأكيد لوصف الصعيد، وهو في الأصل ((مصدر زلقت الرجل، إذا اضطربت وزلت على الأرض فلم تستقر. ووصف الأرض بذلك مبالغة، أي ذات زلق، أي هي مزْلِقَة))[4]، والمزلقة: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم. أي وتزلّ عنها الأقدام لملاستها، ((والزلق: الحلق، زلق رأسه يزلقه زلقاً حلقه...، وليس المراد أنّها تصير مزلقة، بل المراد أنّها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلِقَ لا يبقى عليه شعر)) [5]. والمعنى: تصير ((أرضاً بيضاء لا ينبتُ فيها نباتٌ، ولا تثبت عليها قدم))[6].

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴿٤١﴾

فسّر النحاس ﴿غَوْراً﴾ بغائر، وقدَّره بذي غور مثل: ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ﴾[7] [سورة يوسف:٨٢]. والذي أراه أنّ ثمّة فارقاً دلالياً بين قولنا: (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَائراً) وما جاء في الآية الكريمة: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾، فـ﴿غَوْراً﴾ مصدر وُضِعَ موضع الصفة، ونُصِبَ على الحال للمبالغة لإعطاء دلالة أقوى، كأنَّه قد حصل ذلك بالفعل؛ بسبب نكران

١يُنظر: الكشّاف:٥٨٨/٣؛ ومفاتيح الغيب:١٢٩/٢١؛ والجامع لأحكام القرآن:٢٨٢/١٣-٢٨٣.

٢ تفسير القرآن العظيم:١٤٠/٩.

٣ يُنظر: التحرير والتنوير:٣٢٥/١٥.

٤ المصدر نفسه: ٣٢٥/١٥.

٥ الجامع لأحكام القرآن:٢٨٣/١٣.

٦ المصدر نفسه:٢٨٣/١٣.

٧ يُنظر: معاني القرآن الكريم:٤/ ٢٤٦؛ وإعراب القرآن:٢/ ٤٥٨.

الجاحد لنِعَم ربِّه، وقد أشار القرطبيّ إلى هذا المعنى إذ قال: ((الغور مصدر وُضِعَ موضع الاسم؛ كما يقال: رجل صومٌ، وفطرٌ، وعدلٌ، ورضا، وفضلٌ، وزورٌ، ونساء نوحٌ؛ ويستوي فيه المذكر والمؤنث، والتثنية والجمع)) [1]، ومعنى ﴿**غَوْراً**﴾ يغوص ويسفل في الأرض[2]، ومعنى الآية: ((فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء))[3]. للماء))[3]. وفي الآية كناية عن الجدب والقحط اللذين يسببان موت النبات. ﴿**فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً**﴾ أي لن تستطيع ردَّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بأي حيلة، والضمير في ﴿**له**﴾ يعود على الماء مطلقاً لا للماء المخصوص أي فلن تستطيع طلب غيره بدلاً منه، والمراد نفي استطاعة الوصول إلى الماء فعبّر عنه بنفي الطلب إشارة إلى أنّه غير ممكن، والعاقل لا يطلب مثله.

وبهذه الآية انتهت المحاورة بين الرجلين المؤمن والجاحد، وتطالعنا السورة الكريمة بالآيات اللاحقة بالمفاجأة المدهشة، بتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن ذلك الكافر المتغطرس، وفجأة ينقلنا السياق من منظر البهجة والازدهار، إلى مشهد البوار والدمار.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴿٤٢﴾

في هذه الآية وما بعدها إخبار من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلّم) عن حال الرجل الجاحد، ومآل جنته. ﴿**وَأُحِيطَ**﴾ فعلٌ ماضٍ مبني لما لم يُسم فاعله، وحُذف الفاعل جلّ جلاله؛ للعلم به. والإحاطة: كناية عن عموم العذاب والفساد[4]، ويُقصد بالإحاطة الاستدارة بالشيء من جميع الجهات، ((وأصله: أحاط به العدوّ؛ لأنَّه إذا أحاط

١ الجامع لأحكام القرآن:١٣/٢٨٤.

٢ يُنظر: مفاتيح الغيب:٢١/١٢٩.

٣ الجامع لأحكام القرآن:١٣/٢٨٤.

٤ يُنظر: البحر المحيط:٦/ ١٢٣.

به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كلِّ إهلاك. ومنه قوله تعالى ﴿**إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ**﴾ [يوسف:٦٦] ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدوّ: إذا جاءهم مستعلياً عليهم))[١]. وفي هذا الموضع من الآية كناية عن هلاك ثمر جنتيه عن آخرهما، ولم يسْلَم منهما شيء، إذ شبَّه البارئ عزَّ وجلَّ هلاك جنتيه بما فيهما بهلاك قوم أحاط بهم عدو وأوقع فيهم فلم ينجُ منهم أحد، وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار صاحبه، وجاء خلاف ظنّ الجاحد و اعتقاده إذ قال: ﴿**ما أظنُّ أن تبيد هذه أبداً**﴾.

ويبدو أنَّ الهلاك كان ليلاً لقوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَ**﴾؛ لأنّ الآفات السماوية أكثر ما تقع ليلاً. و(الفاء) عاطفة دلّت على أن لا مهلة بين قول الجاحد وهلاك الجنتين؛ ليعرف الجاحد أنَّ سبب هلاك جنتيه يعود إلى جحده بأنعُمِ الله تبارك وتعالى عليه. ﴿**يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ**﴾ كناية عن التعجب، والاستغراب، ممّا حصل بهما، وفيه دلالتان: الأولى: إبداء الندامة والتحسر عليهما، والأخرى: الندامة على ما بدر منه من قولٍ وفعلٍ أغضب ربّه عليه.

وتقليب الكفين يكون ((ظهراً لبطن وهو إنَّه يبدي باطن كفه ثم يعوج كفه حتى يبدو ظهرها وهي فعلة النادم المتحسر على شيءٍ قد فاته المتأسف على فقدانه))[٢]، يؤكد ذلك قول الزمخشريّ: ((كناية عن الندم والتحسر؛ لأنّ النادم يقلّب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكفّ والسقوط في اليد؛ ولأنّه في معنى الندم عدّى تعديته بعلى، كأنّه قيل: فأصبح يندم))[٣]. وسبب التعجب وتقليب الكفين يعودان إلى ما تفاجأ به ذلك الجاحد من أمر الله، إذ كان يعتقد أنّ جنَّته تدوم إلى الأبد وإذ بها قد خوت على عروشها لم تبقَ فيها باقية.

---

١ الكشّاف:٣/٥٨٨.

٢ البحر المحيط:٦/ ١٢٣.

٣ الكشّاف:٣/٥٨٨.

والكناية بأصل الوضع ((أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنّى عن الأمر بغيره يكنّي كناية: يعني إذا تكلّم بغيره ممّا يستدل عليه))[1]، والكناية لفظية مجازية تأتي مفردة ومركبة؛ وتُفهم دلالتها من اللفظ الظاهر، ويُقصد بها: ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه؛ لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: (فلان طويل النجاد) لينتقل إلى ما هو ملزومه، وهو طويل القامة، وكما تقول فلانة (نؤوم الضحى) لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو كونها مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات... وسُمِّي هذا النوع كناية، لما فيه من إخفاء وجه التصريح))[2]. وتتألف الكناية من ((ثلاثة أركان:

- المكنى به: وهو دلالة اللفظ الظاهر الذي يقوم دليلاً على مراد المتكلّم.
- المكنى عنه: وهو المعنى اللازم للمكنى به الذي يرمي إليه الناطق بالكناية.
- القرينة العقلية التي يفرزها سياق الكلام لترشد إلى المكنى عنه، وتمنع إرادة المعنى المكنى به))[3].

والكناية من الأساليب البلاغية التي تكون أبلغ، وآكد، وأقوى حجاجاً من التصريح؛ لأنّ المعنى الذي يفهمه المتلقي من قصد المُحَاجِج بعد تدّبرٍ وتفكّرٍ، يكون أقوى تأثيراً، وأكثر إقناعاً من المعنى الصريح؛ لأنّه يخضعه إلى عملية ذهنية عقلية، فالمُحَاجِج عندما يُكنِّي يريد من ذلك إشراك المتلقي في العملية الحِجَاجِية؛ لأنّ الكناية تجعل المتلقي يقوم بعملية ذهنية عقلية لإدراك العلاقة الدلالية التلازمية ما بين المعنى السطحي الظاهر (المكنى به)، والمعنى الخفي الذي يريد المُحَاجِج التوصل إليه (المكنى عنه) ما يجعله يتوصّل إلى الفكرة التي يريدها المُحَاجِج بنفسه، وتوصّل المتلقي إلى ما يريده المُحَاجِج بنفسه يجعل تقبله للفكرة والاقتناع بها أقوى من التصريح؛ لذا عُدّت الكناية حِجَاجاً يتوجه به المُحَاجِج

---

١ لسان العرب: مادة (كني):٢٣٣/١٥.

٢ مفتاح العلوم:٦٣٧.

٣ البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود. كامل حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م): ٣٧٠.

إلى عقل المتلقي؛ لينقله من التعبير الكلامي الظاهر إلى دلالةٍ أعمق تردفها في التداول[١]، ويبدو أنّ ذلك كان مكمن السرّ في تسابق البلغاء إليها، ووَصَفَ الدكتور محمود السيد شيخون في كتابه (الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم) الكناية بأنّها ((وادٍ من أودية البلاغة، ومقتل من مقاتل البيان العربي... وطريق جميل من طرق التعبير الفني ... ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع، ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب))[٢]، فهي تزيد من حيوية العبارة وقوتها، فضلاً عمّا تضفيه على المعنى من جمال الصياغة، ومتى ما جاء المعنى مصحوباً بدليله، كان أشدّ تأثيراً، وأقوى إقناعاً.

﴿**عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا**﴾ أي أصبح نادماً على ذهاب ما أنفق من المال في عمارة الجنتين. ﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ جملة اعتراضية حالية استُعمِلتْ كناية عن كمال الخراب، وتعني: ((خالية قد سقط بعضها على بعض))[٣]، وقال الراغب الأصفهانيّ: ((أصل الخواء: الخلا... والتخوية: ترك ما بين الشيئين خالياً))[٤]. والعروش: جمع عرش، والمراد به في هذه الآية: ما يُصنع من الأعمدة لتوضع عليه الكروم. ((فاسم الفاعل خاويةٌ جاء منوناً، وهو في جملةٍ حالية- والحال بطبيعتها متنقلة-؛ ليدلّ على التغير وعدم الثبات. فالسياق يدلُّ على أنَّ الجنَّة كانت مثمرة فتغيرت حالها من النضرة والعطاء إلى حال الدمار والخواء))[٥]. ﴿**وَيَقُولُ**﴾ حكاية عن تندمه على ما بدر منه من قول. ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً**﴾ ((تذكر موعظة أخيه وعلم أنَّه إنَّما أتى من جهة شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يصبه ما أصابه. ويحتمل أن يكون توبة من الشرك))[٦]، أي يا ليتني لم أجحد

---

١ يُنظر: الحِجَاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام): (أطروحة) ١١٦-١١٧.

٢ الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم، محمود السيد شيخون، مكتبة الكلية الأزهرية، مصر، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ):٨٧.

٣ الجامع لأحكام القرآن:٢٨٥/١٣.

٤ المفردات في غريب القرآن: مادة (خوى) ١٦٣.

٥ دراسة أسلوبية في سورة الكهف: (أطروحة) ٥٩.

٦ روح المعاني:٢٨٤/١٥؛ ويُنظر: تفسير البيضاوي:٣٤١/٢.

بنعم ربِّي، وعرفت أنَّ ما لديّ من نعمة كانت من لدن الله، فتمنى لو لم يكن جاحداً. ((ندم على الشرك لاعتقاده أنّه لو كان موحداً غير مشرك لبقيت عليه جنته، فهو إنّما رغب في التوحيد؛ لأجل طلب الدنيا، فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولاً عند الله))[١]. ﴿**ليت**﴾ تُستعمل للتمني غير الممكن الحصول، ((وحرف النداء مستعمل في التلهف))[٢]. والغاية من ذلك؛ ((ليعلم صاحب الجنتين – ومَن على شاكلته في كلِّ زمانٍ ومكانٍ– أنَّ كلَّ ما ملكه أو يملكه ليس من عنده ولا بقوته، وإنَّما كان من عند الله وبإرادته)) [٣].

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴿٤٣﴾

﴿**وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾. ﴿**فئة**﴾ اسم ﴿**تكن**﴾. ﴿**له**﴾ جار ومجرور خبر ﴿**تكن**﴾ قُدّم للاختصاص. ﴿**ينصرونه**﴾ في موضع الصفة، أي لم تكن له فئة هذه صفتها[٤]. ويجوز أن تكون جملة ﴿**ينصرونه**﴾ الخبر. ((والوجه الأول عند سيبويه أولى؛ لأنّه قد تقدم ﴿**له**﴾، وأبو العباس يخالفه ويحتج بقول الله عزَّ وجلَّ ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَه كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٤]. وقد أجاز سيبويه الوجه الآخر، و﴿**ينصرونه**﴾ على معنى فئة؛ لأنّ معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لكان ولم تكن له فئة تنصره))[٥].

المعنى: ﴿**فئة**﴾ فرقة أو جماعة يلتجِئ إليهم يمنعونه من عذاب الله، وفي ذلك تلميح بالتعريض لقول الجاحد لصاحبه: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نفراً**﴾. ومعنى الآية: ولم تكن له فئة يقدرون على نصرته من دون الله تعالى. ﴿**وَمَا كَانَ مُنتَصِراً**﴾ أي ما كان محصَّناً بولْدِه وحاشيته من عذاب الله تبارك وتعالى. وقال ابن عاشور: ((وإنّما أحاط به هذا العقاب

١ مفاتيح الغيب:١٢٩/٢١.

٢ التحرير والتنوير:٣٢٧/١٥.

٣ سورة الكهف: ٤٠.

٤ يُنظر: التحرير والتنوير: ٣٢٨/١٥.

٥ إعراب القرآن:٢/ ٤٥٨.

جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنّه لما اعتزَّ بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سُلِبَتْ النعمة عن قارون حين قال: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨]. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة؛ لأنَّها تجمع قوماً يرونهم أحطَّ منهم وطلبوا من النبيّ – صلى الله عليه وسلّم – طردهم عن مجلسه)) [١].

يُستشف من هذه القصة أنَّ ما أعطاه الله سبحانه تعالى من النعم للرجل الجاحد كانت الغاية منها الاختبار والابتلاء، وهنا تكمن قيمة المثل الذي ضربه الله عزّ وجلّ على لسان نبيه محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلَّم) لمشركي قريش، الذين تكبروا على المؤمنين، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يُخبر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلَّم)، ويُخبر المشركين والنَّاس جميعاً أنّ ما عند النَّاس من النِّعم الدنيوية الغاية منها الاختبار والابتلاء، وهذا ينطبق على كلِّ إنسان يُنعم عليه الله سبحانه بنعمةٍ، فعندما يكون الإنسان بنعمة دنيوية تكون الغاية منها الابتلاء، وعلى المسلم أنْ يتّعظ من هذه القصة بأن يشكر ربَّه على ما يُعطيه من النِّعَم، ولا يجحد بها، فما الدنيا – بما فيها – إلا دار ابتلاء واختبار وتمحيص للقلوب والمؤمن مَن زهِد فيها. ففي ((هذه القصّة الحقَّ سبحانه وتعالى أراد أن يُعطي مثلين في الدنيا، مثلٌ للإيمان، ومثلٌ للكفر المؤمن يقول الله يُعطيني، وانتفاعي بالنعمة هو ما قدَّره الله لي، وهذا يدلنا على أن المؤمن ينظر إلى حقائق العطاء، ولا ينظر إلى ذات العطاء؛ لأنَّه قد يكون في المنع عطاء، ويكون المنع أثمن من النعمة ذاتها)) [٢].

---

١ التحرير والتنوير:٣٢٨/١٥.

٢ سورة الكهف: ٤١.

هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴿٤٤﴾

﴿**هُنَالِكَ**﴾ مبتدأ، وهو اسم إشارة للبعيد (الآخرة) أي في تلك الدار. ﴿**الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**﴾ ((الوَلاية – بفتح الواو – مصدر وَلِي، إذا ثبت له الوَلاء))[1]، من الموالاة. قال الزمخشريّ: ((بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك، وقد قُرِئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، تقريراً لقوله: ﴿**وَلَم يَكُنْ لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ**﴾ [الكهف:٤٣] أو هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كلُّ مضطرٍّ... ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنّه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدّق قوله: ﴿**عسى رَبّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السماء**﴾ [الكهف:٤٠] ويعضده قوله: ﴿**خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾ أي لأوليائه))[2]، أي لا وَلايةَ إلا لله تعالى وحده لا يقدر عليها أحد؛ ((لأنَّ الوَلاية من شأنها أنْ تبعث على نصر المولى، وأنْ تُطمِع المولى في أنْ وليه ينصره))[3]، ولا يتحقق الاطمئنان لذلك إلا مع الله تبارك وتعالى، فهو الوليّ الحقّ، ولا ولاية لغيره.

وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي: (الوِلاية) بالكسر بمعنى السلطان، والقدرة، والإمارة، وقرأ أبو عمرو، والكسائي (الحقُّ) بالرفع نعتاً للوَلاية[4]. ﴿**هُوَ**﴾ الضمير عائد على الرجل المؤمن فهو عند الله تعالى: ﴿**خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾، ﴿**خيرٌ**﴾ اسم تفضيل. ﴿**ثَوَاباً**﴾ في

---

١ التحرير والتنوير: ٣٢٩/١٥.

٢ الكشّاف:٥٨٩/٣.

٣ التحرير والتنوير:٣٢٨/١٥.

٤ يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:١٥/ ٢٧١؛ ومجمع البيان في تفسير القرآن:٢٦٥/٦.

العاجل والآجل. ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ خير عاقبة، والعُقب والعُقبى آخر الأمر، وهما ما يرجوه المرء في آخرته من سعيه وعمله في الدنيا[١]، و(ثَوَاباً، عُقْباً) كلاهما تمييز[٢].

وفي هذه الآيات التي ضرب الله تعالى فيها مثل الرجلين (المؤمن والجاحد) زجرٌ وتوبيخٌ للكفرة من قريش ومن سار على نهجهم من النَّاس إلى يوم القيامة. إذ شبَّه صناديد قريش بالرجل الجاحد، وفقراء المؤمنين بالرجل المؤمن.

وفي هذه القصة دروسٌ وعِبرٌ للأفراد الذين يعيشون حياتهم من دون غاية أو هدف إيماني، ويقصرونها على السعي وراء التفاخر بالقدرة المالية أو الوجاهة الاجتماعية فإنّهم في النهاية يصابون بالغرور، وينسون الآخرة.

ولو أكملنا ما بدأناه في البحث عن الاتساق النصّي للآيات نجد أنّها لا تنفك عن الافتتاحية، ولا عمّا جاء بعدها، ويتضح ذلك جليّاً بالإحالات الآتية:

- **الاتساق النصي مع الافتتاحية:**

١. **لفظ الجلالة (الله):** أحال إليه بالآية الثانية والثلاثين بـ(جعلنا، حففناهما، جعلنا)، وفي الآية الثالثة والثلاثين بـ (فجّرنا)، وفي الآية الثامنة والثلاثين بـ (هو الله)، وفي الآية الأربعين بـ (يُرسل)، وفي الآية الرابعة والأربعين (هو خيرٌ).

٢. **النبي محمّد (صلى الله عليه وآله وسلّم):** أحال إليه بالآية الثانية والثلاثين بـ(اضرب)، وفي الآية.

- **الرجلان المؤمن والجاحد (الاتساق النصي للقصة نفسها):**

١. **الرجل المؤمن:** أحال إليه بالضمائر:

- الغائب: الآية السابعة والثلاثين بـ (قال).

---

١ يُنظر: معاني القرآن الكريم:٤/ ٢٤٨؛ والتحرير والتنوير:١٥/٢٣٠.

٢ يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن:٦/ ٢٦٥.

- المتكلم: في الآية الثامنة والثلاثين بـ (لكنّا، ربّي، لا أشرك، بربي)، وفي الآية الثامنة والثلاثين بـ (ترنِ، أنّا)، وفي الآية الأربعين بـ (ربيّ، يؤتينِ).
- المخاطب: الآية الرابعة والثلاثين بـ (منك)، وفي الآية التاسعة والثلاثين بـ (دخلت، جنتك، قلت)، وفي الآية الأربعين بـ (جنتك)، وفي الآية الحادية والأربعين بـ(لن تستطيع).
- المخاطب: الآية الرابعة والثلاثين بـ (منك).

٢. **الرجل الجاحد:** أحال إليه بالضمائر:

- الغائب: الآية الثانية والثلاثين بـ(لأحدهما)، وبالآية الرابعة والثلاثين بـ (كان له ثمر، فقال). وفي الآية الخامسة والثلاثين بـ (دخل جنته، وهو ظالم، لنفسه، قال)، وفي الآية السابعة والثلاثين بـ (له صاحبه)، وفي الآية الثانية والأربعين بـ(يقلب، يقول)، وفي الآية الثالثة والأربعين (له فئة، ينصرونه، ما كان منتصراً).
- المتكلم: الآية الرابعة والثلاثين بـ (أنا أكثر مالاً وأعزّ نفراً)، ، وفي الآية السادسة والثلاثين بـ (ما أظنُّ، رددتُ، لأجدنَّ).
- المخاطب: الآية التاسعة والثلاثين بـ (ترنِ)، وفي الآية التاسعة والثلاثين بـ (دخلت، جنتك، قلت)، وفي الآية الأربعين بـ (جنتك)، وفي الآية الحادية والأربعين بـ(لن تستطيع).

وجاءت هذه القصة مناسبة لقصة (أصحاب الكهف مع دقيانوس وأصحابه)، وقصة (صناديد قريش مع المؤمنين الفقراء) فمعانيها منتظمة متلاحمة متآلفة مترابطة متراصفة، فالرجلان (المؤمن والجاحد) في هذه القصة مثَّلا الصراع ما بين الحق والباطل، الذي وجدناه في قصة (أصحاب الكهف مع دقيانوس وأصحابه)، وقصة (صناديد قريش مع المؤمنين الفقراء). إذن ما زال موضوع السورة يسير على نسقٍ واحد ومناسبة واحدة. يمثلهما الصراع ما بين الحقّ والباطل.

وما يُلفت النظر في هذه القصّة أسلوب الالتفات بتنوع الضمائر والانتقال من الغيبة إلى التكلم إلى الخطاب؛ لدفع الملل والكلل عن السامع.